إشكالية النوم الحالـــم بمنظور الإعجاز العلمي القرآني

حسن مظفر الرزو

مدير المكتب الاستشاري العلمي

كلية الحدباء الجامعة

الموصل / جمهورية العراق

١ . مـقـــــدمـة:

إن أهم ما تميزت به جل معطيات عصرنا الراهن هي امتلاك العلم الحديث الإمكانية الكافية للولوج في معظم ميادين المعرفة البشرية، ففتح بذلك كثيرا من الأبواب الموصدة أمام العقل البشري. بيد أن باب النوم والأحلام قد بقي موصدا، حتى فترة قريبة، حيث بدأ العلماء يتلمسون طريقهم في متاهات هذا العلم الغـامض، والـذي لازال بكرا،وبحاجة الى مزيد من الكشف والاستقصاء.

والعلم المعاصر ، بطبيعته، يستحوذ على مفاتيح مشكلات المعرفة وميادينها، ساعيا الـى إقصـاء الخبـرات الأخرى، كالمعرفة الدينية، ليبؤها في مقام الأساطير عندما يمتلك مفتاحا لباب موصد من أبوابهـا. غيـر أن الوقفة النقدية أمام الإجابات التي طرحها العلم الحديث لحل المشكلات المعرفية لدائرة النوم والأحلام تؤشـر نحو ضرورة إشعال الأضواء الحمراء على درب الاتجاهات التفسيرية لهذه الظواهر، لكي لا يعتبرها الباحث المبتدئ، أو القارئ العادي - الذي لا يمتلك القدرة المتبصرة على نقد مناهج العلم الحديث وأدواته - فيتوهم بأن هذه الإجابات هي التفسير الوحيد، والأكثر قبولا لظاهرتي النوم والأحلام، فيشرع بإلصاق تهمة القصـور ببقية التفسيرات المطروحة، بحجة مجانبتها للموضوعية العلمية، والدقة الصارمة للعلم، فيسارع الى إلحاقهـا بدائرة الأساطير والخيالات الكاذبة للفكر البدائي.

إن المعرفة الدينية لازالت تمتلك خطاباً، وتأويلاً معرفياً للظواهر الكونية، لم يتلق العلم المعاصـر منـه كـل شيء، ومازالت تمتلك من الأسرار، والكلمات، والتأويل، ما لم تبح به بعد. إذن لازال الخطاب الديني المتمثل بالقرآن الكريم قادراً على الكلام،والبوح بأسرار ثرية لمن ينقب بين ثناياه برفق، من أجل هذا أضحت عمليـة تأويله لسبر ما حواه من إعجاز علمي يفوق اكتشافات العلم المعاصر، ضرورة ينبغي أن تتكئ الـى محاولـة

بناء عقلانية جديدة، تستثمر الخطاب الإلهي، والسنة النبوية الصحيحة، اللذان تكفل الله تعالى بحفظهما بعيداً عن ساحة التحريف والباطل، حيث تتجاوز المعرفة الإلهية مناهج البحث البشرية التي يلتصق ببشرتها الخطأ والقصور.

سنطرق في هذه الوقفة على باب محورين أساسيين في دائرة بيان الإعجاز العلمي القرآني ، بميدان النوم والأحلام (الأول):حقيقة المراحل التي يمر بها النائم، و(الثاني): بيان مصدر الأحلام لغرض إزالة إشكالية تفسير النوم الحالم لما يكتنفه من غموض وإبهام عندما يحاول تفسيره العاملون في مضمار علم النفس. من أجل هذا سنعمد الى تبني منهجا مقارناً بين ما قاله العلم المعاصر بلغة المختبرات والأرقام، وما يحمله الخطاب القرآني المعجز من إجابات توفر تربة ملائمة لنمو فرضيات أكثر نضوجاً تبرر هذه الظواهر بلغة علمية رصينة.

٢ . مناهج البحث العلمي المعاصر:

للعلم المعاصر غايتان أساسيتان، (الأولى) غاية تكمن وراء جميع أوجه الجهد، والفاعلية البشرية لتسجيل الوقائع، وتشكيل النظريات لتفسير المشاهدات، والتكهن بها، و(الثانية) ثمرة الغاية الأولى، وهي استثمار المعرفة النظرية لتمكين الإنسان من السيطرة على مفردات الطبيعة، وتطويعها بما يخدم أغراضه [١].

والاستقراء يقود العقل الى تعليل الحقائق المشاهدة وصولاً إلى قانون، أو مبدأ، أو قضية كلية تحكم الجزئيات التي تخضع الى إدراكنا الحسي. وبفضل هذه القوانين نسعى إلى العثور على طريقنا خلال تيه الوقائع الملاحظة، وإلى تنظيم، وفهم عالم انطباعاتنا الحسية، عن طريق صياغة تركيباتنا النظرية لتفسير الواقع، وإلقاء الضوء على انسجامه الباطني [٢] .

تتألف عملية الاستقراء من ثلاثة محاور أساسية، تشمل الملاحظة والتجربة، ووضع الفروض، ثم البرهنة على صحة هذه الفروض وموضوعيتها. إن عصب المنهج التجريبي، هو الفرض، لأنه هو الذي يدعو الى التجريب، فالفرض هو البذرة، والمنهج هو التربة التي تزودها بالأحوال الملائمة لنموها وازدهارها، وإعطاء خير الثمرات وفقاً لطبيعتها.

والتجربة عبارة عن ملاحظة دقيقة للظاهرة، بعد تعديلها تعديلاً محسوباً بعناية عن طريق التدخل في صنع بعض الظروف بما ينتج الحادثة، أو الظاهرة في بيئة تساعد على التحقق من صدق فرض طرأ على عقولنا.

قال كلود برنار (١٨١٣ ـ ١٨٧٨ م) في كتابه "***المدخل الى الطب التجريبي***"***:*** ينبغي بالضرورة أن نقوم بالتجريب، مع وجود فكرة متكونة من قبل. وعقل صاحب التجريب ينبغي أن يكون فعالاً، أعني أنه ينبغي أن يستجوب الطبيعة، ويوجه إليها الأسئلة في كل اتجاه، وفقا لمختلف الفروض التي ترد عليه[٣].

من هنا يبدو واضحا بأن التجربة ليست سوى جهد مستبصر للباحث، يربط فيه الملاحظة بفرض يفسرها، لكي يعود ثانية فيغير من ظروفها بما يخدم الفرض في تبريره للواقعة المشاهدة في قانون عام.

وأما الفرض في معناه العام جداً، فهو تخمين عام، أو اقتراح من نتاج خلـق خيـال الباحـث of Creation Imagination الذي يطرحه لتفسير علة واقعة، أو مجموعة من الظواهر التي سبقت ملاحظتها وتجربتها، أو هو اقتراح مؤقت يهدف الى فهم وتفسير الوقائع المشاهدة والمجربة قبل أن تصير هذه الوقائع دلـيلا عليـه، وبرهاناً على صدقه[٤] .

لذا فنحن حين نضع فرضاً، إنما نقترح علة من مجموعة علـل افتراضـية، تكـون الظـواهر، أو الأشـياء الملاحظة، أو موضوعات التجربة معلولات لها وآثاراً. وبذلك فإن الفرض العلمي يثير تجارباً وملاحظـات، يمكن الوصول منها الى القانون، فالنظرية التي تفيد في تقديم تفسير، أو عدة تفسيرات تحيل الوقائع المبعثـرة الى وقائع مفسرة في إطار بناء فكري متناسق.

وخلاصة الكلام عن العلم المعاصر، بأنه عملية استثمار ملاحظة منهجية، يقوم بها الباحـث بصـبر وأنـاة، لاقتراح تبرير يعلل حدوثها، بفرض يعاد اختباره في تجربة تحكم صياغة ظروفها، لكي تدرج في قانون عام يفسرها، لأن قوام كل معرفة علمية هو التعميم في قانون كلي، ولأنه بدون التعميم فإن عملية التنبؤ تغدو شبه مستحيلة[٥] .

٣ . مفاتيح أبواب النوم والأحلام في ميزان العلم المعاصر:

إن الإنسان، منذ كان، قد التصقت ببشرته الأحلام، فكانت نافذة يطل من خلالها على عوالم جديـدة، تصـيبه بالدهشة تجاه ما يتلمس فيها، وما تحمله في طياتها من نبوءات المستقبل المجهول.

وإذا استبعدنا الفكر البدائي الأسطوري، نجد بأن ما طرح على طاولة تفسير عالم النوم والأحلام قد انقسم الى مدرستين أساسيتين:

(المدرسة الأولى): تمثل تيار الأديان السماوية التي تعتبر الأحلام لديها منحة إلهية للبشر مـن الخـالق عـز وجل، تحمل بين جنباتها النذارة والبشارة.

(المدرسة الثانية): وتنتشر على مساحة واسعة زمنياً وموضوعياً، كانت بداياتها منذ زمن أرسطو عندما ألقى الضوء على مصادر الحلم في رسائله الأولى، فكان الحلم موضوعاً في دائرة الفلسفة، ثم تلقفه علماء الـنفس فصار جزءاً من علمهم البكر، وأخيراً بات يدرس على ضوء النظريات البايولوجية فـي المختبـرات. وقـد انصبغ كل تفسير من تفاسير هذه المدرسة بالروح العلمية للعصر الذي ظهر فيه، مع ظهور تفسيرات جديـدة تحاول البرهنة على تهافت سابقاتها، حتى استقر الحلم أخيراً في أحضان المنظور البايولوجي الذي بـز بقيـة النظريات في اكتشافاته، إلا أن هذا لم يلغ بقية التيارات التي لازالت تضع الفروض، وتصيغ النظريات.

لقد كان ولوج الأحلام في دائرة المنظور البايولوجي مصادفة غير مقصودة، وقد حدث ذلك نتيجـة ملاحظـة ظاهرة فيزيولوجية أثناء دراسات اختبارية لظاهرة النوم وليس الأحلام، ففي عام (١٨٥٣) لاحظ الباحثـان - في موضوع النوم- "أزرينسكي وكلايتمان"[٦] ظاهرة حركة العـين السـريعة Rapid Eye Movement - REM- فامتد بحثهما من هذه الظاهرة لحركة العينين المصاحبة للأحلام ليشمل محاولـة اكتشـاف ظـواهر

أخرى تصاحب الأحلام، سوء أكانت هذه الظواهر يمكن مراقبتها عيانياً، أو باطنة يمكن تسـجيلها بوسـائط الرصد والقياس.

كذلك كان لدراسة حركة الدماغ الكهربائية،أثناء النوم، فضلاً كبيراً في إلقاء الضوء على فترات النوم الحالمة، مؤيداً الاكتشاف الأول لحركة العين السريعة (REM) وبذلك أضحت هاتين الظاهرتين، في عصرنا الحـالي، الدليل العلمي القاطع على وجود فترات محددة أثناء النوم، والتي تقترن بالأحلام.

٣ . ١ . مراتب النوم :

بات تخطيط حركة الدماغ الكهربائية، وحركة العين السريعة للنائم دليلاً قاطعاً على وجود مرتبتين للنوم هما:

أ. النوم غير الحالم Synchronized Sleep

ب. النوم الحالم (المتناقض) Paradoxicai Sleep

تشكل مرتبة النوم غير الحالم الفترات الأطول زمناً من النوم، وهي في مجموعها تشغل حـوالي أكثـر مـن نصف زمان النوم بأجمعه. أظهرت البحوث في المختبرات بأن فترة النوم غير الحالم تتوالى مع فترات النوم الحالم ، بصورة دورية رتيبة، ويتكرر ذلك من ٤ الى ٦ دورات في نوم الليلة الواحدة كدالة لفترة النوم. وقـد لوحظ بأن النشاطات الفيزيولوجية في هذه المرحلة إما تقل عما كانت عليه أثناء فترة النوم الحالم، أو أنها قـد تنعدم ، مثل حركة العينين السريعة، ونشاط عضلات الأذن الوسطى، وارتعاش عضلات الوجه والأطراف.

أما مرتبة النوم الحالم فتتألف من الفترات الزمنية التي تحدث فيها الأحلام ، وقد سميت هذه الفتـرات بـالنوم الحالم بناء على نتائج الأبحاث التي أجريت على النائمين، والتي أظهرت بأن إفاقة الفرد مـن نومـه خـلال فترات ذات خصائص فيزيولوجية مميزة بأنه كان يحلم في معظم الحالات.

ليست الأحلام العنصر الوحيد الذي يسود الفترات الحالمة، فهناك نشاطات أخرى تحدث خلالها، وهي نشاطات إما فريدة ومميزة لها دون غيرها من فترات النوم غير الحالم، أو أنها تنشط بصورة أكثر وضوحاً خلال فترة الحلم. ويمكن إجمال أهم الفعاليات التي تتزامن مع هذه المرحلة : بالأحلام، وحركة العينين السريعة، وحركة الدماغ الكهربائية، وحركة عضلات الأذن الوسطى، وشدة التوتر العضلي، والانفعالات الجسمية.

٤ . العقبات المعرفية أمام تفسير النوم الحالم:

رغم تطور تقنيات مختبرات العلم المعاصر المخصصة لدراسة ماهية الأحلام ومواردها في تربة النوم الحالم، إلا أنه لازالت هناك الكثير من الظواهر تستغلق على الفهم، وبحاجة الى تبرير. وسنحاول أن نلخـص هـذه العقبات بما يلي:

١ .توفر الإمكانيات التقنية لرصد جميع ظواهر فترة النوم الحالم، سواء كانت ظواهر بايولوجية،أو خلوية، أو سلوكية، ما عدا الأحلام،التي لايمكن فصلها عن غيرها من الظواهر البايولوجية المصاحبة لها. لذا لازال

متعذراً على الباحثين إقامة الدليل القاطع على هدف كل ظاهرة من ظواهر النوم الحالمة علـى حـدة، أو على البرهنة فيما إذا كانت هذه الظواهر البايولوجية ضرورية لحدوث الأحلام، أو على العكس بأن تجربة الأحلام هي ضرورة لازمة لقيام هذه الظواهر المتزامنة معها ؟.

٢. خلال فترة النوم الحالمة، فان الحركة الدماغية تبدو أقرب ما تكون للحركة الدماغية أثناء اليقظة، وهـي عادة مزيج من حركات ألفا الطبيعية، ومن حركات بيتا البطيئة نسبياً. ولهذا تعتبر هذه الفترات حـالات من النوم غير العميق، وهو اكتشاف يتعارض مع ما كان يظن سابقاً أن الأحلام تحدث في أعمق درجات النوم، بينما تتسم الأخيرة بحركات دماغية بطيئة، مع خلوها من الأحلام.

٣. عند قياس درجة التوتر العضلي عند النوم، وقف الباحثون على حقيقة تناقص هذا التوتر بشكل ملحوظ أثناء فترات النوم الحالم، مع تزامن هذه الظاهرة مع كل من : حركة العين السريعة، الحركة الكهربائية للدماغ، حركـات الأذن الوسطى، كما تبين بأن الارتخاء العضلي هو أكثر درجات الارتخاء شدة بالمقارنة مع ما يحدث أثناء النوم غيـر الحالم ، أو أثناء اليقظة، أي بمعنى آخر هناك تناقض في المفاهيم: فالنوم الحالم هو أكثر درجات النـوم سـطحية وقرباً لحالة اليقظة، بينما هو في نفس الوقت أكثر درجات النوم من حيث الارتخاء العضلي !. من أجل هذا أطلق عليه اصطلاح النوم المفارق Sleep Paradoxical .

٤. تحدث في فترة النوم الحالم، زيادة ملحوظة في نشاط الجهاز العصبي الذاتي، مقترنة مع زيادة مماثلة في إفرازات الغدة الكظرية (الأدرينال)، وهو تغيير لا مثيل له في حالات النوم غيـر الحـالم، أو حـالات اليقظة(٧) .

٥. حالة الوعي تكون مفقودة أثناء النوم غير الحالم، أما أثناء النوم الحالم، فان الفرد يكون في حالة وعي، فهو يراقب الأشياء، ويشارك فيها، ويظهر الانفعالات العاطفية، وكل ذلك بدون حراك فـي جسـمه أو أطرافه(٨).

٦. وجود ارتفاع ملحوظ في معدلات: سرعتي النبض والتنفس، ضغط الدم، نسبة اسـتهلاك الأوكسـجين، درجة حرارة الجسم والدماغ، وكمية سيلان الدم في القشرة الدماغية.

٧. حصول ارتفاع في عتبة الإفاقة من النوم، أي أن النائم لا يستيقظ من رقاده إلا بصعوبة كبيرة عند المقارنـة مـع استيقاظه من النوم غير الحالم، رغم أن الحركة الدماغية تكون أقرب الى حالتها أثناء اليقظة !.

وقد عبر الدكتور علي كمال عن المفارقة التي وقع فيها علماء النوم والأحلام لتبرير ما ذكرناه أعلاه من ظواهر متناقضة خير تعبير في أبوابه الموصدة[٩] فقال:وهنالك عدة اجتهادات لتفسير هذه المفارقات، والتي تجمع في آن واحد بين دلائل سطحية النوم ودلائل عمقه، ومن هذه التفاسير هي أن النوم الحالم هو أقل عمقا، أما صعوبة إفاقة الحالم من نومه، فإنها لا ترد الى عمق نومه، أو الى ارتفاع عتبة تحسسه بالإشارات الخارجية، وانما لأنه لا يستوعب هذه الإشارات في أحلامه، ويدمجها بمحتوى أحلامه بصورة أو بأخرى. أما لماذا يكون التراخي العضلي في أقصى درجاته أثناء النوم الحالم، والذي له أن يدلل منطقياً على عمق النوم، فان تفسيره لازال ممتنعاً، وهناك من يرى في هذه الظاهرة أثناء النوم الحالم بأنها وسيلة للمحافظة على الطاقة، بينما يرى آخرون بأنها من مخلفات نمو وتطور الكائنات الحية، والتي كانت تحس بأمان أعظم إذا ما ظلّت بدون حراك أثناء نومها؟.

إذن نخلص مما تقدم بأن العلم المعاصر، رغم تقنياته التي فرضت وجوده على ساحة التبرير الموضوعي للظواهر، يفتقر في بعض الجوانب الى فروض مقبولة لتعليلها، وأن صياغاتنا للقوانين، لا يمكن أن تعلن استخراجها كعنصر من الأشياء، بل هي تركيب عقلاني، وهي رمز ونتاج لاستعدادنا لتبديل الزوايا التي ننظر منها الى الثبات في العالم [١٠]. وعليه فان دراسة الظواهر المصاحبة لظاهرة النوم الحالم ، في مختبرات العلم المعاصر، لا تعني فهم أسراره الباطنة بل إلقاء الضوء على البيئة التي يبزغ من بين جنباتها الحلم، وشتان بين الاثنين .!

٥ . المنهج الإسلامي في معالجة فرضيات الأحلام:

يعتبر القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة المورد الأساس الذي يتكئ إليه المنهج الإسلامي في تأصيل فرضياته، وصياغة نظرياته لشتى جوانب الحياة.

ولقد وردت في القرآن الكريم حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية تبصرنا بجانب مهم من عالم النوم والأحلام الذي أوصدت أبوابه، واكتنفه الغموض. ففي الموضع الأول قال الله تعالى في كتابه العزيز[١١]

((**هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**..)) ـ الآية، وقال تعالى في الموضع الثاني[١٢]

((**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى** ..)) ـ الآية.

وفي هاتين الآيتين الكريمتين إشارة واضحة الى توفية النفس عند النوم، وولوجها مرحلة النوم الحالم في عالم برزخي ـ تنتقل الروح عند رقيها فيه ـ بين مراتب متفاوتة، ثم تعود ثانية الى العالم الشهودي عند الاستيقاظ، لذا كان عندما يلجأ الى فراشه صلى الله عليه وسلم يقول [١٣]:"باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه. إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين."، ويقول عند نهوضه صلى الله عليه وسلم من النوم " الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، واليه النشور.".

ولتوظيف اصطلاح "التوفية" بما يزيل العقبات التي تعترض تعليل مرحلة النوم الحالم، وتبديد سحابة الغموض التي تحيط به، سنعمد الى صياغة فرض علمي جديد يفتح آفاقاً جديدة أمام تجارب رائدة تهـدف الـى تقـديم تفسيرات مقنعة للنوم المفارق.

ولكي يفيد الفرض الجديد من التجارب، وينير الدرب أمام استنباط النتائج المثمرة منها، ينبغي:

١ ـ أن يكون واضحاً، ومحدداً، ودقيقاً، ل البس فيه ولا غموض، يسمح باستخراج نتائج يمكـن اختبارهـا بالخبرة الحسية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

٢ ـ ألاّ يتعارض مع قانون طبيعي، قد سلّم بصدقه بصورة متواترة، وغير متناقض مع قوانين الفكر.

٣ ـ أن يكون قادراً على تفسير جميع الوقائع التي أخضعها للاختبار، لا لتفسير شـريحة محـددة منهـا، معرضاً عن جوانب أخرى تترابط مع تلك الشريحة ارتباطاً جوهرياً.

لقد أبحنا لأنفسنا إطلاق اصطلاح " **الفرض العلمي** " على ما سنورده في التوفية، لأنه يصح اعتبـار التعليـل فرضاً متى ما عبر عن علة لمجموعة معينة من الظواهر المصاحبة للنوم الحالم،، وبما يقود خطى الباحـث ويوجهها نحو حل المسألة وتحديد التجارب أو الملاحظات المطلوبة، وانتقاء التقنيات المختبرية التـي تعينـه على اجراء تجربة أدق، وملاحظة أعمق، على ضوء هذه الفرضية بما يحيل الوقائع المبعثـرة الـى وقـائع مفسرة تنضوي تحت نسق أحكمت صياغة حدوده العلمية بدقة.

٥ . ١ . الفرضية المقترحة لتعليل مرحلة النوم الحالم:

تتكئ الفرضية المقترحة الى ***الحقيقة القرآنية المعجزة*** التي أشارت بوضوح الى توفية النفس في مرحلة النوم الحالم، وتعضدها الآثار النبوية الشريفة التي تدور حول نفس الموضوع. لذا سنشرع بإلقـاء الضـوء علـى تفاصيل التوفية، وما تحتمله من معان لغوية واصطلاحية تمهيداً لصياغة الفرضية المذكورة.

إن اصطلاح "**التوفي**" الوارد في القرآن الكريم يحمل عدة معان[١٤]، وينتصب وراء كل معنـى مـن هـذه المعاني مذهب في تفسير حقيقته. فالوجه الأول للتوفي، هو قبض الروح عن الجسد ومفارقتها له. وقـد ورد هذا المعنى في سورة النساء "**إن الذين توفاهم الملائكة** .." ـ الآية، وفـي سـورة النحـل " **تتوفـاهم الملائكة**.." ـ الآية، وفي تنزيل السجدة " **قل يتوفاكم ملك الموت**.." ـ الآية[15]

وقد أخرج الإمام الدارقطني حديثا يؤشر نحو تطابق توفية النوم مع الموت[١٦] من حديث جابر بن عبدالله قال: قيل يا رسول الله ! أينام أهل الجنة ؟ قال "لا النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيهـا." . قـال ابـن زيد:النوم وفاة، والموت وفاة.

وقد اعتبر أنصار هذا الوجه توفي الله عباده في منامهم بالليل موتاً أصغراً، إذ أن الأرواح تقبض عند النـوم، فتفارق الجسد مفارقة مؤقتة الى أجل مسمى عند الله تعالى. وأما الموت فهـو التـوفي الأكبـر، لأن الأرواح تفارق أجسادها مفارقة دون إرسال لحين البعث [١٧].

والوجه الثاني، يرد بمعنى الرفع الى السماء، كما في قوله تعالى لعيسى بن مريم عليه السلام " **إني متوفيك ورافعك إلي** ..." ـ الآية، وفي سورة المائدة " **فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم**.." ـ الآيـة[١٨]، لذا فالأرواح المقبوضة بالمنام تعرج في عالم الرؤيا فترقى كل منها الى مرتبة تليق بكمالها.

ويحمل الوجه الثالث للتوفي معنى قبض الحس في النوم، كما ورد في قوله تعالى " **وهو الـذي يتوفـاكم بالليل**..." ـ الآية[١٩]، وهو مذهب الحبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، إذ يستدل من قوله تعالى على استعارة التوفي من الموت للنوم، لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس الظاهرة والتمييز، وبذلك فان توفي الأنفس عند نومها هو إمساك لها عن التصرف في الأجساد مع بقاء اتصال الأرواح بها[٢٠].

على ضوء ما نقل من أقوال تفسر معنى التوفية، يمكن أن تصاغ الفرضية التالية:

" إن الظواهر المفارقة التي تصاحب مرحلة النوم الحالم Sleep Paradoxical يمكن أن تعـزى الـى توفيـة النفس البشرية في حدود عالم النوم الرحيب. وتتألف التوفية من عدة مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ بقبض الأحاسيس عن التصرف في أعضاء الجسد، فينقطع ضوء الروح عن ظاهره دون باطنه.

المرحلة الثانية: وتتألف من مراتب روحانية لا يمكن حصرها، لارتباط كل مرتبة من هذه المراتب بمتغيرات تنشأ عن طبيعة الرائي والمرئي. فقد يقتصر التوفي على انحباس فـي بـاطن البـدن، بـين أحاسيسه وآماله، فيرى النائم في منامه ما اختزن في أعماق الـذات (الشـعور)، أو تظهـر خيالات طبيعية تنشأ عن تنبه النفس بأذاها في ساحة البدن. أو ترتقي في عالم الأرواح، فتلتقي بأرواح الأحياء والأموات فتتعارف، وتتذاكر في إطار مفردات النوم الحالم".

٥ . ٢ . تبرير الفرضية المقترحـــة:

قد تبدو الفرضية المقترحة بعيدة عن الواقع العلمي بمعيار المشتغلين في مضمار سيكولوجية الأحـلام، إلا أن سبر دلالاتها بمعيار منصف يزيل عن كثير من مفرداتها سحابة الشك بمصداقية موضوعيتها إذا ما قورنـت بالفرضيات التي اقترحها علماء هذا الشأن من بنات أفكارهم عند محاولة تبرير تناقض المفاهيم فـي مرحلـة النوم المفارق.

لذا سنحاول امتحان مفردات الفرضية، عن طريق السبر والتقسيم، مع اعتماد الحقائق الموضوعية التي توصل إليها العلم المعاصر في رحلته الطويلة في غياهب عالم النوم والأحلام.

١. اقترحت الفرضية اصطلاح التوفية لتفسير النوم بجميع مراحله، وهذا الإصطلاح يتطابق موضوعياً فـي دلالته ومحمولاته مع محمولات النوم، وصفات النائم. فالنائم تقبض أحاسيسه وتتوفى عـن التصـرف بظاهر الجسد، وهذا مما لا ينكره المشتغلون في سيكولوجية النوم والأحلام.

٢. إن حدوث جملة من الظواهر المرافقة للنوم الحالم من: حركـة العـين السـريعة REM ـ والحركـة الدماغية، ونشاط عضلات الأذن الوسطى، والإرتخاء العضلي، والتغيرات الفيزيولوجيـة الجسـمية،

والتغيرات الكيميائية، وتزامن هذه النشاطات مع بعضها البعض خلال هذه الفترة من النـوم، يؤشـر بوضوح بأن جميع هذه الظواهر ليست بالنشاطات العشوائية بل إنها أطراف متعـددة لعمليـة واسـعة ومتناسقة تسود البدن البشري كانعكاس لحصول ظاهرة تتناقض مع البيئة الفيزيولوجية للإنسـان فـي فترة اليقظة. فإذا كان السؤال الذي يطرحه علم النفس عن هذه الظواهر هو : ما هي أغـراض هـذه الظواهر ؟ وما هو مدى وأهمية كل فعالية من هذه الفعاليات في تحقيقها؟![٢١]. وكانت إجـابتهم علـى هذه المسألة بأنه مازال كل ذلك مما لم يتوفر العلم المعاصر على الوثوق من أمره حتى الآن ..!، فإننا بالمقابل نجيب بأن جميع هذه الظواهر هي انعكاس لظاهرة التوفي وولوج النائم الـى عـالم برزخـي جديد، تختلف مفرداته وشبكة ارتباطاتها عما هي عليه في عالم اليقظة، لذا تتحـرك العـين بسـرعة، ويزداد نشاط الدماغ، وترتفع درجة حرارته ويصاحبها ارتفاع درجة حرارة الجسم، لأن البيئة المحيطة بالنائم قد انقلبت رأسا على عقب .!

٣. إن قبض الروح عن ظاهر البدن، ينتج عنه ظاهرتين قد أشارت إليهما البحوث المعاصرة فـي ميـدان الأحلام، (الأولى): الارتخاء العضلي الشديد بالمقارنة مع النوم غير الحالم، أو أثناء اليقظة، وفي هـذا الأمر دلالة قاطعة على وجود تغيير حاسم في مرحلة النوم الحالم. ويبرر هذا الأمـر لـدينا بسـبب التوفية، لذا يكون الارتخاء العضلي في أقصى درجاته، لأن النفس قد توفاها الله عـن بـدن النـائم. و(الثانية) ارتفاع عتبة الإفاقة في مرحلة النوم الحالم، وكيف يستيقظ من توفت روحه كمن لم يلج هذه المرحلة، والفارق بينهما ينجم عنه الفارق الملاحظ في عتبة الإفاقة.

٤. إن توفية النائم لا تعني غياب الوعي، بل توقف عن التصرف بالجوارح وولوج في عالم روحـاني ذي أبعاد لا أقليدية !، وعليه وفق الفرضية المقترحة فان الوعي لن يتضاءل في النوم عما هو عليـه فـي فترة اليقظة، وهذا مما تؤكده النظريات الحديثة والتي تؤشر بوضوح نحو تقارب الحركة الدماغية أثناء اليقظة، مع الحركة الدماغية في فترة النوم الحالم لأن البدن قد أغفت حواسه واستيقظت روحـه علـى تباشير صباح برزخي لا نهاية لأطرافه الممتدة.

٦. ملحوظات ختـاميـــة:

إذا كان الإنسان الغربي، في عصرنا الراهن، قد اختص بالعلم وأنه قد فرض وجوده علـى العـالم باعتبـاره إنساناً تقنياً أولاً، فهذا لا يعني أن مقومات المعرفة العلمية قد احتكرها العلم الذي أنشـأ الغربيـون صـرحه فحسب. فالعقل البشري لا يملك إلا قوالب مهمتها تختير الوقائع المنقولة إليه عن طريق صـياغة فرضـيات على ضوء الوقائع المشاهدة، وإن هذه الفرضيات والنظريات لا يمكن أن تستعمل إلا في حـدود الموضـوع المشخص، وتصبح عاجزة تماماً إذا ما وجهت لتبرير موضوع مفارق في حدود التجربة الدينية والروحية.

والعقل منذ أن صدع الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت بنظريته النقدية في كتابه الشهير " ***نقد العقل المجـرد*** "[٢٢] أصبح أداة لا تستعمل إلا في ميدان خاص هو حدود العالم الذي نعيشه مع استبعاد التجربة الميتافيزيقية (حسب اصطلاحه) عن دائرته وإلحاقها بدائرة الشيء بذاته الذي يقع خارج حدود اهتماماته.

إلاّ أن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو : هل أنه لا يوجد نظام معرفي آخر، وله أداته الخاصة في تبرير الوقائع المشاهدة والتي لا تقع في دائرة الظاهرة الحسية البحتة؟ أو هل يصح القول بالأحرى أن التجربة الدينية قد أضحت طللاً لا يؤبه بفرضياته لأن أداة فهمها غير موجودة بين مفردات العلم المعاصر ؟.

وإذا تتّبعنا تأريخ المعرفة البشرية حتى نهايته،أدركنا بأن العلم المعاصر لم يلغ وجود التجربة الدينية، ولكنـه ألغى معقوليتها بمعياره التجريبي بيد أن مكانتها لازالت في المستوى الذي يلائـم طبيعتهـا، وهـو مسـتوى الاعتقاد، لأن العلم أداته العقل الذي يسبر ويقسم، لكي يصنع للأشياء الخارجية معقوليتها وحدود فهمها، أمـا التجربة الدينية فأداتها الوجدان الذي يؤمن بالنص الإلهي المنقول كحقيقة غير قابلة للنقض حتى ولو نبت عن الفهم البشري القاصر ودون الحاجة إلى متوالية العلة والمعلول. إلا أن هذا لا يعني إقصاء العقل عن دائرتهـا بل يعتضد العلم بنسغ الروح التي تعمق فهمه للوقائع وما يكمن وراء ظاهرها الشاحب. ذلك لأن تطابق العقل مع النظام النظري الذي صنع وفقاً لفرضياته يجعله يقبل بخداع نفسه، لأنه قد قبل بإيداع نشاط فهمه للوقـائع داخل الحدود التي اصطنعها على ضوء تجاربه التي تقصر عن احتواء جميع الحوادث التي تحيط بالواقعـة، فيقنع نفسه بتطابق الذات والموضوع، ليتولد لديه الإحساس باليقين، وهو يقين مخادع، ونسبي.

إذن ينبغي أن نضع نصب أعيننا دائماً بأن مورد العلم المعاصر يقتصر على التجربة وهي الينبـوع الوحيـد الذي ينهل منها حقائقه، لذا فإن كل ما خرج عن حدودها لا يحمل أية خصيصة تشد العلماء للتفكيـر بـه أو إدراجه في قائمة اهتماماتهم. بالمقابل فان قوانين الطبيعة إنما هي نتاج تقطيع وتفتيت المـادة[٢٣]، كمـا قـال أدوار لوروا، وأن كل قانون لا يجرؤ أن يعلن أنه عنصر مستخرج من الأشياء، بل يعلن أنه من تركيب العقل المنشغل بالتقطيع المميز لوجهة نظره ليس إلا.

لذا إننا ندعو نحو استثمار الخطاب القرآني المعجز واعتماده كخطاب معرفي يحمل بين طياته ما يغني العلـم المعاصر بآفاق جديدة لفهم بعض الوقائع، بصورة مباشرة، من خلال معالجتها في القـرآن الكـريم والسـنة النبوية الشريفة. أو بصورة غير مباشرة، من خلال المنهج الذي عولجت من خلاله الوقـائع المـذكورة فـي الكتاب والسنة، ونكون بذلك قد أغنينا معارفنا بمصدر جديد يزيل الغموض عما أعجم علينا من فهـم بعـض الوقائع التي نحاول فهمها، ولا نقتصر على حدود التجربة الضيقة.

وعلى هذا، فإن ما ذكرناه بخصوص تبرير ما يلاحظ في مرحلة النوم المفارق، يفتح أمام المشتغلين في ميدانه آفاقاً جديدة لدراسته على ضوء ما حفل به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فنختبر كل مرحلة من مراحله على ضوء ما حمله اصطلاح التوفية، فنعمد الى التمييز بين الظواهر المصاحبة لمحتوى المنام وهل أن هـذه الظواهر تتزامن مع الحلم الذي يكون محتواه سجيناً في حدود معاناة البدن، أم أنها تقتصر على الرؤى التـي ترقى فيها الروح الى عوالم أكثر سمواً وبعداً عن حديث النفس وأحاسيس البدن؟. كذلك هناك مجالات جديـدة

أمام دراسة نشاط الحركة الدماغية لإيجاد الحد الفاصل بين النوم كظاهرة فيزيولوجية بحتة، وبين مرحلة التوفية، وغيرها كثير...

بيد أننا نود أن نلفت الانتباه نحو حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية، هي أن اقتراحنا لهذه التجارب لا يعني وجود ارتباط جوهري بين اعتقاداتنا التي ابتنيت على ما حملته النصوص الشرعية، وبين ما ستثمر عنه التجارب التي اقترحت آنفاً، لأن لغة العلم مهما دقّت عباراتها، وعمق محتواها، ودعمتها التجارب والأرقام، فإنها قد تزيح اللثام عن بعض محمولات ألفاظ النص، فتخصص بعض مفرداته أو تعممها، إلا أنها في النهاية لن ترق الى مناقضته أو إلغائه.

٧ . الهوامش والإحالات:

(١) ـ الفيلسوف والعلم:١٨٤ / الإستقراء والمنهج العلمي:١٤٤ .

(٢) ـ مدخل جديد الى الفلسفة:٧٢ .

(٣) ـ نفس المرجع .

(٤) ـ المنطق ومناهج البحث العلمي:٢٨٥ / الإستقراء والمنهج العلمي:٤٧ .

(٥) ـ نشأة الفلسفة العلمية:١٨ .

(٦) ـ باب النوم وباب الأحلام:٣٢٦ .

(٧) ـ نفس المرجع:١٣٣ .

(٨) ـ نفس المرجع:٨٨ ـ ٨٨ .

(٩) ـ نفس المرجع:١٠٢ ـ ١٠٣ .

(١٠) ـ مدخل جديد للفلسفة:٨٢ .

(١١) ـ سورة الأنعام :٦٠ .

(١٢) ـ سورة الزمر:٤٢ .

(١٣) ـ فتح البارئ ١٢: / صحيح مسلم ٢:٤٧٨ .

(١٤) ـ المدخل الى الرؤيا وتعبيرها : ٢٧ـ ٣١ .

(١٥) ـ سورة النساء:٨٧ / سورة النحل:٢٨ / سورة السجدة:١١ .

(١٦) ـ المدخل الى الرؤيا وتعبيرها : ٢٨ .

(١٧) ـ نفس المرجع .

(١٨) ـ سورة آل عمران:٥٥ / سورة المائدة:١١٧ .

(١٩) ـ سورة الأنعام :٦٠ .

(٢٠) ـ المدخل الى الرؤيا وتعبيرها : ٣٠ .

(٢١) ـ باب النوم وباب الأحلام:١٣٤ .

(٢٢) ـ استراتيجية التسمية:٤٤ .

(٢٣) ـ مدخل جديد الى الفلسفة:٨٣ .

٨. المراجـــع:

(١) . **استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية**، لمطـاع صفدي، ١٩٨٦، مركز الإنماء القومي، بيروت.

(٢) . **الاستقراء والمنهج العلمي**، للدكتور محمود زيدان، الطبعـة الرابعـة، ١٩٨٠، مؤسسـة شـباب الجامعة للطباعة والنشر،القاهرة.

(٣) . **باب النوم وباب الأحلام**، للدكتور علي كمال، الطبعة الثانية،١٩٩٠، دار واسط للنشر، بغداد.

(٤) . **الصحيح**، للإمام مسلم النيسابوري، بدون تاريخ، دار الفكر، بيروت.

(٥) . **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت.

(٦) . **الفيلسوف والعلم**، لجون كيمني، ترجمة الدكتور أمين شريف، ١٩٦٤، المؤسسة الوطنية للطباعـة والنشر، بيروت.

(٧) . **المدخل الى الرؤيا وتعبيرها**، لحسن مظفر الرزو، ١٩٩٠، شركة بيت الموصل، الموصـــل.

(٨) . **مدخل جديد الى الفلسفة**، للدكتور عبد الرحمن بدوي،١٩٧٤ ، وكالة المطبوعات، الكويت.

(٩) . **المنطق ومناهج البحث العلمي**، للدكتور علـي عبـد المعطـي محمـد، ١٩٧٦، دار الجامعـات المصرية، القاهرة.